مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (37) العدد (1)2015
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (37) No. (1) 2015

الزمَانْ والتصِّوف في فكْر أوغسطين

الدكتور منذر شباني *
لينا مطيع حميدوش **

(تاريخ الإيداع 7 / 12 / 2014. قبل للنشر في 13 / 1 / 2015)

□ ملخّص □

يحاول هذا البحث الكشف عن مفهوم الزمان وإبراز مدلولاته الفلسفية، في فكر العصر الوسيط وخاصة في فكر القديس أوغسطين،فعلى الرغم من تكاثر النظريات والرؤى عن مفهوم الزمان إلا أن أوغسطين أعطاه بعدًا جديدًا تجاوز من خلاله المفهوم اليوناني وخاصة المفهوم الافلاطوني.من حيث اعتباره الزمان امتدادا ،امتداد لما أعرف، أي موجود في العقل، أما التصوف أتخذ أوغسطين طابعا جديداً يقوم على أساس عملي واقعي ،كونه لم يتخلَ أو يرفض العالم ولا العمل والنشاط ونظرًا لغنى أفكاره الفلسفية في هذا الموضوع والتي تتخطى حدود ما سأتناوله في هذه الدراسة إلا أنني سأحاول قدر الإمكان تكثيف الأفكار لإيضاح رأي أوغسطين في الزمان أولاً، وأين أختلف عن المفهوم الأفلاطوني ثانياً، وطريقة تجليه الصوفي ثالثاً.

الكلمات المفتاحية: الزمان، نظرية العلل البذرية، العود الأبدي، الأزلية، التصوف، المحبة، الخوف والرجاء.

*أستاذ مساعد – قسم الفلسفة – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة تشرين – اللاذقية – سورية.
**طالبة دراسات عليا(ماجستير) – قسم الفلسفة – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة تشرين – اللاذقية – سورية.

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (37) العدد (1)2015
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (37) No. (1) 2015

The Time and Mysticism in The Thought St. Augstine

Dr. Monzre shbani*
Lina Moutia Hmaidoush**

(Received 7 / 12 / 2014. Accepted 13 / 1 / 2015)

□ ABSTRACT □

This essay is trying to expose the Concept Of time, And to display it's philosophical meaning in the middle ages thinking, exactly in st.Augstine thinking, as we ›ll see there is more than one theory and more than one vision about the time concept, but st.Augstine had given a new site which give him the ability to cross the Greeg concept of time Specially the platonic concept, because he explain the time as on extent of what I know or as it's exist in our minds. The mysticism in st.Augstine has taken a new vision it's build in virtual, because he never drop or resign the world or the human activity or work so, from this points in this subject matter which it's much more than what I can say or write, I 'll try to give a short hand in this particular concepts the time first, and where the platonic concept is distinguished second,and mysticism third.

Keywords :Time, Rationes Seminales, Cyclical revolution, Interity, Mysticism, Charity, fear and Hope

* **Associate Professor. Department of philosophy, faculty of arts humanities, Tishreen university, Lattakia, Syria.**

** **postgraduate student . Department of philosophy, faculty of arts humanities, Tishreen university , Lattakia, Syria**

مُقدِّمة:

يمكن القول بأن الإنسان في حقيقته كائن زماني، وأن الزمان جزء من وجوده وأفعاله، والتفكير بمشكلة الزمان يشكل الحجر الاساس الذي يرتكز عليه الذهن البشري منذ القدم، وبالعودة إلى التاريخ الأسطوري لا يمكننا أن ننسى قصة جلجامش التي قام بطلها برحلة طويلة لاكتشاف سر الخلود ولمعرفة جدل الحياة والموت، وعلى الرغم من فشل محاولته إلا أنها كانت محاولة للتخلص من الزمان الفاني والعيش في نعيم الابدية.هذه القصة تذكرنا بما حاول أوغسطين تقديمه في مجمل كتبه فكانت محاولته لمعرفة لماذا سقط الإنسان، وكيف يستطيع الإنسان الخلاص للابتعاد عن الموت والعيش في الأبدية، لكننا سنبتعد عن لغة الاسطورة هنا ونركز على اللغة الفلسفية قدر الإمكان. من هنا كان الحديث عن مفهوم الزمان عند أوغسطين مرتبط بشكل مباشر بفكرة الخلق من عدم،لأن لا بداية للزمن إلا مع الخليقة، وهذا الخلق من العدم إلى الوجود جعل الوجود الإنساني محكوما بزمن، بمعنى أن الزمان هو الذي يوجد في الإنسان وليس العكس، وهنا تبرز العلاقة بين الزمان والإنسان عند أوغسطين هذا ما سيحاول البحث التركيز عليه.

-أهمية البحث وأهدافه:

كان الغرض من المقدمة أن نوضح إن الاهتمام بمفهوم الزمان شغل بال الفلاسفة والمفكرين، هذا الاهتمام أدى إلى طرح أسئلة كثيرة حول هذا المفهوم،لذلك سيحاول هذا البحث الإجابة عن بعض الاسئلة من وجهة نظر القديس أوغسطين. ومن هنا تأتي أهمية هذا البحث، لأن اهمية أي بحث تبرز من حيث جدية الأفكار التي يناقشها. فما دامت فكرة الزمان قد شغلت حيزا واسعا في دراسات الفلاسفة اليونانيين والمعاصرين، فأن طرحها في الفلسفة المسيحية، وخاصة عند أوغسطين هو إظهار لفكرة جديدة في فكر أوغسطين بعيدًا عن النظرة الكلاسيكية التي لطالما حصرنا أنفسنا بها وهي(النظرة اللاهوتية). وتاليًا تسليط الضوء على نتاجه الفلسفي الذي ساهم في إغناء الفكر الإنساني، وربما يكون أول من صاغ أجوبة واضحة للزمان واللازماني في تلك العصر.

منهجية البحث:

سنعتمد في هذا البحث على المنهج النقدي التاريخي ، الذي سيساعدنا كما نعتقد على الكشف عن الإرهاصات الأولى للمثال الاوغسطيني الذي هيمن على تاريخ العصور الوسطى من خلال تأسيسه لجملة من المسائل التي سنتناول بعضها في هذا البحث كمفهوم الزمان والتصوف.

الزمان:- أولا

إدراكنا للزمان أو للوقت أمر بديهي، ولكن السؤال هل نستطيع تحديده بشكل دقيق يقول أوغسطين :" إن لم يسألني أحد عنه، أعرفه،أما أن أشرحه فلا أستطيع "[1]وانطلاقا من هذا القول نرى بأن الزمان أمر معروف ولكن عندما نريد البحث عن معنى محدد له تبرز التفاوتات و التغايرات في الأفكار والأقوال.لأن التفكير به تفكير ذاتي، ينطلق منفهم الإنسان له. من هنا لابد لنا من تحديده أولا لغويًا، فالزمان لغة كما جاء في لسان العرب لابن منظور "أن الزمان والزمن اسم لقليل من الوقت أو كثير،وأزمن الشيء طال عليه الزمن،وأزمن بالمكان أقام به زمانا وعامله مزامنة. وقيل الزمان والدهر واحد وهذا خطأ لأن الزمان زمان الحر والبرد وهو من شهرين إلى ستة أشهر، بينما الدهر لا ينقطع والزمان يقع على فصول السنة وعلى مدة ولاية الرجل وما اشبهه."[2]

[1]-أوغسطين. الاعترافات، ت:يوحنا الحلو، دار المشرق ، بيروت،ط3، ص249.

1-ابن منظور .لسان العرب، دار صادر، بيروت، ج3، ط3،ص6.

أما الزمان اصطلاحا "هو المضاد للأبدي، لأن الزماني يدل على المتغير، والأبدي على الثابت، ونسبة الزماني إلى الأبدي كنسبة المتناهي إلى اللامتناهي. الزماني متعلق بالحياة المادية،على حين أن الأبدي متعلق بالحياة الروحية."[1] أما في حياتنا اليومية التي يرتبط بها الزمان ارتباطًا وثيقًا فدائما نركز على إننا نرى ثلاثة أزمنة في هذا العالم، الحاضر والماضي والمستقبل. لكن أوغسطين يرى في هذا الكلام خطا شائعاً، لأنه يرى أن من الأصح أن نقول:" في الكون أزمنة ثلاث :حاضر الماضي، وحاضر الحاضر ، وحاضر المستقبل "[2] وهو يجعل من اللحظة الحاضرة الأكثر ضرورة لأن الماضي لم يعد موجودًا ويفقد وجوده تباعًا والمستقبل ليس موجودًا بعد ،لكنه" سيوجد "هنا نتساءل ماهو الزمان الحاضر عند أوغسطين؟ أو أن صح التعبير الزمان المضارع كما يصطلح بعض المفكرين على تسميته؟ إنه هذه الساعة، هذا اليوم، هذا الأسبوع، هذا العام لكن قد يعترضنا أحد بقوله إن الساعة تنقسم ليس فقط إلى دقائق وإنما إلى ثوان ولحظات. واليوم كذلك ينقسم إلى فترات الصباح والظهر والمساء ....الخ. إذن كيف يمكن أن نعتبره حاضرًا إن كان الماضي أي لحظة تمر من حياتنا ؟ من هنا يمكننا الإجابة بأن "الزمان المضارع هو النقطة التي يتحول عندها المستقبل إلى ماضي ."[3] أي أن اللحظة الحاضرة النقطة التي يلتقي بها الماضي والمستقبل، أي بين الأصل الذي كان وبين الرغبة في استعاده وإظهاره من جديد. لأن الحاضر لو بقي حاضرا لكان أزلا وهذا ما يرفضه أوغسطين لأن الله وحده الأزلي، من هنا ميز أوغسطين بين الزمان والأزلية، فالزمان مخلوق كما العالم وبالتالي لا يمكن أن نعتبر أزليا ولا بأي حال من الأحوال،لأن الأزلي غير الزمان، ولأن الزمان يخضع للتغير والصيرورة ومن دونهما لا يوجد زمان، بينما في الأزلية لا يوجد تغيّر، وإنما هي حاضرة دائمًا بشكل مستمر، أي ثابتة. وبالنسبة إلى أوغسطين فأن الأزلي هو الله أو كما نرى في الاعترافات عندما يخاطب الله في أزليته فيقول:" لكنك تتقدم الأزمنة الماضية على مدى أزليتك الدائمة الوجود وتعلو فوق الأزمنة المستقبلية لأنها مستقبلية وما أن تقبل هذه حتى تنقضي بيد أنك باق كما انت وسنوك لا تنقضي ."[4]فسنو البشر تمضي وتنقضي بينما سنوات الله ثابتة وليست سوى يوم واحد فيقول : "سنوك لا تروح ولا تجي بيد أن سنيينا نحن تروح وتجئ ، سنوك تدوم لأنها دائمة حقا أما سنونا نحن فلا تحضر كلها إلا بعد أن تنقضي كلها : سنوك مثل يوم واحد ويومك لا يتجدد كل يوم ، يومك هو الأزل ."[5] ومن هنا يذكرنا أوغسطين بانه لا يمكن قياس الزمان ومروره إلا بوعينا له، فيقول :"هذه الطرق الثلاث موجودة في عقلنا ولا أرى لها وجودا إلا فيه، فحاضر الأشياء الماضية هو الذاكرة، وحاضر الأشياء الحاضرة هو الرؤية المباشرة، وحاضر الأشياء المستقبلية هو الترقب والانتظار."[6] هنا بالضبط تبرز نقطة الاختلاف بين افلاطون و أوغسطين،فافلاطون قاس الزمان على الحركة المستمرة والمتماثلة الدائمة التي للأفلاك في حين ذهب أوغسطين إلى أنه بالعقل وحده نقيس الزمان، وهذا ما أكده قوله:" فيك يا عقلي اقيس الزمان "[7]وهنا يقصد أوغسطين بالعقل الذاكرة التي تحتفظ في مسكنها الكبير بحسب وصفه بكل ما يمر من حوادث وأعمال إلى حين الطلب، فيقول: "عندما أنشد قطعة حفظتها، يصبح

2-جميل صليبا. المعجم الفلسفي، دار الكتاب، بيروت، ج1، ص 638.

[2]-الاعترافات، ص254.

[3]-ماهر عبد القادر محمد، عباس حربى عطيتو. دراسات في فلسفة العصور الوسطى ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ص383.

5-الاعترافات.ص248.

[5]-الاعترافات،ص248.

[6]-الاعترافات،ص254.

[7]-المصدر نفسه،ص262.

نشاطي بين وجهتين تتنازعاني: نشاطي هو ذاكرة بالنسبة إلى ما قلت وهو انتظار بالنسبة إلى ما سأقول "[1]أي بمعنى الانتباه دائما حاضرا مع أن المقاطع بعضها مضى والبعض الآخر سيأتي وخلال هذ الانتباه يمر ما كان مستقبلا ، فطالما أننا نعرف فترات الزمان، من خلال وعيينا بها، فأننا نستطيع بذلك أن نقارنها ونقيس بعضها إلى بعض، أي أن كل شيء عند أوغسطين يمر في حقل الذاكرة وهذا صادق أيضا على كل من حياة الفرد والتأريخ " كذلك تعد أعمال الناس في حياة الإنسان أجزاء منها، وفي تاريخ الشعوب تعد حياة الفرد جزءا من الكل"[2].

وفي حين نظر أوغسطين إلى أن الزمان مخلوق كالعالم وهو صورة للأبدية فأن افلاطون كان قد حدد الزمان بأنه زمان متولد. إذاً عند أوغسطين الزمان الماضي له وجود في ذاكرتنا، والمستقبل هو نوع من التنبؤ فان الزمان الوحيد الذي له وجود هو الزمان الحاضر. من هنا نتساءل إذا كان الزمان ينتقل ويتبدل في ذاكرتنا، فهل يمكن اعتباره نوع من أنواع الحركة ؟ إن كان شيء غير دائم ومتأرجح ؟ حسب اوغسطين الماضي والمستقبل حاضران في الذهن وبالتحديد في الذاكرة وأن افترضنا أنه اعتبر الزمان نوع من الحركة ، إلا أن هذه الحركة هي مقدار للذهن نفسه ، وليس الحركة بالمعنى الفيزيائي، طالما بإمكان العقل إدراكه، فهو يرى :"إن الزمان ليس إلا نوعا من الامتداد ، امتداد لما أعرف ."[3] فمثل هذا الامتداد العقلي للماضي او للمستقبل إنما هو وعي بالزمان. لأن أوغسطين يذهب بالتحديد إلى أن الزمان وما ينتجه من أجزاء ثلاث هو نتاج ترتيب وقائع الأحداث والموجودات في عقلنا ، ولكنه ليس من نتاج عقولنا، لذلك فبالنسبة لأوغسطين الحركة شيء وقياس مدة هذه الحركة شيء آخر، لأن "لا حركة للمادة إلا في الزمان ."[4] وكأنه يذهب إلى القول بان الزمان هو إشارة لبدء قياس حركة المادة ، فالزمان يجري أما المادة تبقى ثابتة لكن هذا الجريان محصور بالذهن وحده بمعنى بمجرد أن تمر أي لحظة فإنه يمكن استعادها بالرجوع لذاكرتنا فتحضر أمامنا وكأنها الآن وليس شيئا أخر. هذا فيما يخص طبيعة الزمان عند أوغسطين . هناك مسألة أخرى تتعلق بمسألة الزمان وهي التداخل الفعلي بين مفهوم الخطيئة ومفهوم الزمان. فإذا كان العالم خُلق من العدم إلى الوجود فهذا يعني أن الوجود الإنساني محكوم بزمان، من حيث أن الزمان مخلوق كما حدده أوغسطين، من هنا يمكن اعتبار الزمان هو ثمرة تحليل حياة النفس، فالإنسان عندما يحلل نفسه يشعر بالقلق والخوف على مصيره ، والقلق الناتج عن مخالفته لشريعة الله التي هي الخطيئة، لأن الإنسان ثار على خالقه وإلهه فتكبر وأساء التصرف بحريته فسلمه إلى الموت، من هنا كان يمكن القول بأن الزمان سمة للخطيئة، خطيئتنا نحن لأن "الله يتمجد بالطبيعة في ذاتها وليس بالنسبة لعلاقتنا "[5].

من هنا يحق لنا التساؤل ما هو نظام هذا الزمان في عالمنا بعد الخطيئة؟ يجيبنا أوغسطين عن هذا بقوله" دوران الكائنات في الأمكنة التي تحدد فيها وجودها بعضها يلد خراب الآخر، والأضعف يخضع للأقوى، والمهزوم يندمج في مجمع الظافرين." [6]لكن يؤكد أوغسطين أن هذا النظام لا يروق لكثير منا لأننا بحكم طبيعتنا الفاسدة أو الصائرة إلى الموت التي أصبحنا من خلالها عاجزين عن رؤية علاقات التجانس القائمة التي تربط المجموع بالأجزاء، لكن عجزنا هذا لا يسمح لنا بتجاهل هذا النظام أو تجاوزه فلأول خطير والثاني مستحيل. أما السؤالعن كيفية تفسير أوغسطين لخلق الأشياء باستمرار أي " بالتدريج" يلجأ أوغسطين هنا إلى نظرية العلل البذرية التي استمدها من الرواقية

---

[1] -المصدر نفسه،ص263.
[2] -المصدر نفسه،ص263.
[3] -المصدر نفسه،ص260.
[4] -الاعترافات،ص248.
[5] -اوغسطين. مدينة الله، م2،ص65.
[6] -المصدر نفسه،ص 64.

"فالله خلق العالم وكل شيء متضمنا الإنسان ليس الكل دفعة واحدة ومعا بل أيضا مع قدراتهم الكامنة وتطورهم المستقبليين أو ما قد تسمى بالقدرة الكامنة الجنينية ."[1] أي أن الله خلق نوعا من الكائنات بالفعل كالملائكة والسماء والأرض....ألخ ونوعا ثانيا بالقوة أي قائما في أصول أو بذور وهذا ما أكده لنا أوغسطين في الاعترافات بقوله :" الكلمة تخلق لكن المخلوقات التي صنعتها بكلمة منك لا تقبل كلها الوجود معا كما لا تقبل الوجود منذ الأزل ."[2]وفي مكان آخر من الاعترافات يقول: "لأن كل مكون مما لا صورة له لا يكون له في البدء شكل ثم يأخذ شكله ."[3]أي أن الله هو خالق المادة مع القدرة الكامنة لامتلاك الشكل، لأن خلقها تم بالتدريج،هذا بالضبط ما كانت الرواقية قد تحدثت به حيث ترى الرواقية أن" العالم مركب من مبدأين : مبدأ منفعل هو المادة جوهر لا كيفية له " غير متعين " ومبدأ فعال هو عقل يفعل في المادة و هو الله نهائيا "[4]وبما إن الأشياء خُلقت على شكل بذور كامنة فأنه يمكن القول كما ذهبت الرواقية على إنه "لا يوجد خلاء في العالم لأن العالم يشكل كلا متصلا "[5] هنا نصل إلى السؤال التالي إلى ماذا كان يهدف أوغسطين بلجوئه لنظرية العلل البذرية لتفسير نشوء الأشياء؟ بالطبع كان يرمي إلى التأكيد على أن "البذور تؤكد وتعلل ثبات الأنواع لا تطورها، أي تعلل لماذا حبة الحنطة تنتج الحنطة لا الحمص مثلا ."[6]لأن لو كان الأمر تطور الأنواع لكان ذلك سيؤدي إلى إبداع الإنسان لأشياء وهذا ما يخالف عقيدة الخلق عند أوغسطين.إذاً هذه النظرية تؤكد نظرية الخلق المستمر لله وتنفي عمل الإنسان في الخلق و لأن الأشياء الموجودة " لا تسطيع فعل شيء إلا إحياء الأشكال الموجودة لتصبح كائنات مكتملة "[7]فالأشياء في أصلها خفية وتتمتع بقوى سببية "وعندما تبدأ الأجناس بالوجود يتم تحقيق المبدأ البذري"[8]. وهذا ما يؤكد أن الله هو العلة الأولى لجميع الأشياء " إذا ليس الغارس شيئا ولا الساقي ، بل الله هو الذي ينمي "[9]فصحيح أن الأهل هما السبب وراء ولادة الأطفال ولكن الله وحده هو الذي يعطي هؤلاء الأطفال القدرة على الحياة وليس الأهل. بهذا الصدد تظل مسألة ذات أهمية لابد من التنويه إليها في فكر أوغسطين عن الزمان، ألا وهي هل يمكن قبول فكرة العود الأبدي ؟ بالنسبة إلى أوغسطين فأن الفكرة مرفوضة نهائيا لأنه يرى "لا شيء في الزمان يكون بلا نهاية إلا إذا كان بلا بداية "[10]أي ماله بداية له نهاية، وما ليس له بداية ليس له نهاية. وبالتالي "المسيح مات مرة واحدة لأجلنا، ثم قام من بين الأموات، ولن يموت أبدا."[11] من هنا يمكننا القول بأن فكرة الاصطفاء الإلهي التي كانت اساس فلسفته من حيث خلود نفس الابرار في الأبد، وشقاء نفس الأشرار في الأبد تشكل الرد الأكبر على فكرة العود الأبدي، لأن الله تبعا لتلك الفكرة بحسب أوغسطين لا ينقذ جميع الأنفس، بل يختار منهم ، دون أن يعني ذلك أن اختيار الله هذا تابع لظروف أو حالات بعينها، بل أن اختيار الله هو فعل أزلي

---

[11]-Masih,Y Acriticai History of Western philosoph (creek,Medieval and Modren),India.p.144.

[2]-الاعترافات، ص245.

[3]-المصدر نفسه،ص289.

[4]-جان بران .الفلسفة الرواقية،تعريب:جورج أبو كسم ،دمشق، ط1، ص75.

[5]-المرجع نفسه،ص80.

[6]-علي زيعور. أوغسطينيوس مع مقدمات في العقيدة المسيحية والفلسفة الوسيطية، دار إقرأ، بيروت،ص169.

[7]-Samual Stumph E.Philosophy, History and Problem,New York,Mac raw,Hill,Inc,p.144

[8]-Samual Stumph,p.141.

[9]-رسالة القديس بولس إلى أهل كورنثوس،3:7

[10]-أوغسطين. مدينة الله، م1، ص 512.

[11]-أوغسطين ،مدينة الله، م2، ص82.

سابق على خلق الإنسان من حيث " أن الأشياء كلها بتدبير إلهي مسبق قد حصلت ولا شيء تحت الشمس جديد" [1] .وأخيرا لابد من التنويه بقول أوغسطين "عجيبة هي معرفتك وخفية ولا نسبة بينها وبين معرفتنا."[2]أي أن معرفة الله ثابتة لا تتغير ولا تنقسم إلى ماضي وحاضر ومستقبل، بل هو كله حاضر لديه، في حضور دائم على عكس معرفتنا نحن البشر، وبالتالي أن كانت معرفته ثابتة فأن علمه ثابت كمعرفته، ومعرفة الله الكاملة تقتضي أيضا أن يعرف الزمان ،ليس فقط الحاضر وإنما الماضي والمستقبل أيضا.

وهنا يمكننا استحضار قول شيلر والذي نراه مهمًا في السياق نفسه في تلخيص الزمان بكلمات مقتضبة "ثلاثية هي خطوة الزمان: مترددا يأتي المستقبل على مهل وفي سرعة السهم طار الآن والماضي سكن سكون الأبد"[3]أي أن حياتنا تظل مرتبطة بشدة بين ماضي مضى ومستقبل لم يأتي بعد أما لحظة الحاضر فهي التي لن نشعر بها إلا عندما تصبح ماضيا، لذلك الذهن هو الوحيد الذي يرتب العلاقات بين أقسام الزمان الثلاثة من خلال ثلاث وظائف :"التوقع ، الانتباه ، والذاكرة ."[4]ومن هنا نرى أن أوغسطين قد عالج مسألة من أهم المسائل يمتاز بأنه قدم طرح وحل لمفهوم الزمان تجاوز من خلاله ليس فقط المفهوم اليوناني والأفلاطوني،بل الفكر الاسلامي بهذا الطرح ،حيث جعل من هذا المفهوم أساس فكرته في الحديث عن النظام والعالم.

ثانيا -التجلي الصوفي عند أوغسطين :

ترتبط ظاهرة التصوف بالأزمنة والأمكنة، وتتميز بأنها تجربة ذاتية تقوم على وجدان المتصوف وتدينه. لذلك فأن التصوف باقٍ ببقاء الإنسان وبقاء علاقته بالله وهو لا يقتصر على الفكر الإسلامي أو على الإنسان الزاهد فقط، بل أننا إذا تأملنا كتب أوغسطين فسنجد الكثير من العبارات الصوفية التي تشير إلى تصوف هذا الفيلسوف. ففي كتاب الاعترافات وكتاب خواطر فيلسوف في الحياة الروحية، وصف لنا أوغسطين معاناته الروحية وتجربته الدينية وحالات الوجد التي حلت به ومعارج رقيه إلى الله. وقد عبّر أوغسطين عن هذا العلو الذاتي للإنسان على إنه موجه نحو الله، حيث يقول " أنت يامن لا تتغير فيك الراحة التي تنسينا كل تعب "[5]أي أن الإيمان بالله هو الذي نسعى من خلاله للوصول إلى الراحة المرجوة. لا يقتصر الأمر على هذه العبارة فهو يلجأ كثيرا إلى عبارة" محتاج أنا وفقير"[6] وفي مكان أخر يقول " أني إليك فقير"[7] هنا نتساءل ما معنى الفقر الذي يقصده أوغسطين ؟ من المعلوم لنا جميعا أن وجودنا ليس ثابتًا،بل متغير " كنفس الإنسان و جسده "[8]لأننا إذا نظرنا إلى أنفسنا نجد أن خلايانا تتبدل كما يتبدل الشعر ويتغير، فالفقر هنا فقر في الوجود لذلك نحتاج إلى الله في وجودنا، فوجودنا ليس حقيقيا بل نحن نعتمد على الله في وجودنا في

[1]-أوغسطين . مدينة الله، م2، ص 81.

[2]-أوغسطين. الاعترافات، ص265.

[3]-علاء الدين محمد عبد العال . تصور ابن سينا للزمان واصوله اليونانية ، دار الفناء ، الاسكندرية،ص8.

1-أوغسطين. الاعترافات،ص254.

2-الاعترافات، ص176.

3-الاعترافات، ص240

4-أوغسطين . خواطر فيلسوف في الحياة الروحية ، ت: يوحنا الحلو ، دار المشرق ، بيروت، ط9، ص196

5-الاعترافات، ص271

6-لمصدر السابق، ص 350.

حين أن وجود الله هو وحده الوجود الحقيقي. هذا الفقر هو للوصول إلى نوع من الفناء في الله، لكن هذا الفناء يؤدي إلى البقاء، بقاؤنا بالأعمال الصالحة "أي يجب عليّ أن أحيا حياة صالحة لكي أذهب حيث أبقى ."[1]

للحديث عن التصوف الاوغسطيني لا بد لنا من الوقوف أن صحت اللفظة على أحدى المقامات الصوفية الواردة في كتبه وهي التوبة حيث يرى أن سبيل التوبة هو الصلاة والصوم للتغلب على العالم وتجاربه، والشيطان ومكايده، فالصوم يعني البعد عن المحرمات التي حرمها الله، وضبط النفس والإرادة، وفعل الخير.أما الصلاة فهي الحديث مع الله وحاجتنا إليها إلى تقوى لا إلى ثرثرة ،وفي هذا يقول " رب ساعدني أني أرجو التغلب بالصوم والصلاة على العالم وتجاربه والشيطان ومكايده والبشر ونشاطهم والجسد ومغرياته والأزمنة واضطراباتها وعلى سائر الضيقات الروحية والجسدية ."[2]وأيضا يقول " صل ولا تمل ، صل باستمرار صلاة إيمان ورجاء ومحبة "[3]لكن لا فائدة من التوبة عند إوغسطين "إن لم يقم الإنسان بأعمال توبة "[4]ويستند في هذه الفكرة إلى الكتاب المقدس وخاصة انجيل لوقا الذي يقول "اصغ يا أولاد الأفاعي من أراكم أن تهربوا من الغضب الاتي ، إلا ثمرا جديرا بالتوبة ،فكل شجرة لا تثمر ثمرا طيبا تقطع وتلقى في النار "[5].أما ثمار التوبة فهي في أن يظهر الخاطئ ندامته عن ما ارتكب من خطايا وعدم الوقوع في خطايا جديدة كما يذكر أوغسطين "اصنع ندامة أي ثُر على ذاتك بسبب خطاياك الماضية وكف عن ارتكاب خطايا جديدة "[6]. وأيضا يقوم التصوف الاوغسطيني على الصبر، فالصبر عنده هو الذي يستحق اسم فضيلة لأن الذي" يجعلنا نتحمل الأذى بهدوء خوفا من أن نخسر بالإثم الخيرات التي بها نبلغ إلى ما هو اسمى منها "[7].ويربط أوغسطين الصبر بالمحبة فيقول:"لا صبر حقيقي من دون محبة لأن محبة الله في الصالحيين تحتمل كل شيء كالشهوة العالمية في الأشرار "[8] ويقوم أيضا التصوف الاوغسطيني على فعل الشكر، فالشكر هو الأقبال على الله والثناء عليه والتحدث بنعمه وشكره في السراء والضراء،فيؤكد على ضرورة الشكر الدائم لله ويعترف بأن الله وحده هو المنعم فيقول في ذلك: "وجدتُ بنعمة منك سابقة لهذا الكل الذي صنعتني، ولهذا الكل الذي منه صنعتني."[9]أما حالات الصوفية التي تحدث عنها أوغسطين فهي كثيرة،نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر حالة الخوف والرجاء. فالخوف عنده نوعان " نوع سافل وهو خوف من يخشى الاحتراق مع الشيطان وخوف نقي وهو خوف من يخشى عدم مرضاة الله ."[10]

1-الاعترافات،ص173.
2-المصدر نفسه،ص198.
3-المصدر نفسه،ص175.
4-انجيل لوقا، 7:3
5-خواطر فيلسوف في الحياة الروحية، ص177
6-المصدر نفسه، ص361
7-المصدر نفسه، ص364
8-الاعترافات،ص265.
9-خواطر فيلسوف في الحياة الروحية،ص3.
10-المصدر نفسه، ص5.
11-انجيل يوحنا .18:4

أي إما أن يكون خوفه مع الطاعة فيخاف ألا يقبل وإما أن يكون خوفه مع معصية فيخاف الجزاء عليها من هنا كان لابد من المحبة التي وحدها تستطيع طرد الخوف. فيعبّر عن ذلك بقوله :"متى دخلت في المحبة بدأ الخوف يخرج."[1] وهو ما عبّر عنه انجيل يوحنا"كمال المحبة يطرد الخوف خارجا "[2] وهذه المحبة لا يمكن لها أن تثمر من دون الرجاء ، والرجاء لا يتحقق من دون الإيمان لذلك يربط أوغسطين بين الرجاء والإيمان فيقول :" لأن الرجاء للإيمان رفيق "[3] ويرى أن الرجاء حقيقة لأنه طالما أنت تؤمن فالرجاء ممكن في هذا الزمن فيقول:" الاتحاد بك حياة والابتعاد عنك موت ."[4]هذا الاتحاد لا يتم إلا بالطاعة والإيمان وممارسة الأسرار وغير ذلك يؤدي إلى الابتعاد عن الله .

من هنا نستطيع التأكيد على أن اوغسطين كان متصوفا بكل ما تعنيه الكلمة، وأن كان تصوفه يقوم على مذهب جديد إلى حد كبير، مختلف عن معنى التصوف الذي نعرفه لدى المتصوفة الاسلاميين، حيث أن تصوفه كان يقوم على أساس عملي واقعي لأنه لم يتخلى في حياته عن العالم ولا عن العمل والنشاط فظل طيلة حياته يمارس التدريس وهذا ما يمكن أن نعتبره تصوف حقيقي لأنه يقوم على ملامسة الواقع دون ان يرفضه.

النتائج والمناقشة:

يتضح لنا مما سبق:

1–أن أوغسطين تأثر بالفلسفة الأفلاطونية بشكل كبير إلا أن هذا التأثر لم يكن إعادة صياغة لفلسفة أفلاطون، كما رأى بعض المفكرين وإنما قدّم رؤى وأفكار تجاوز من خلالها المفهوم الأفلاطوني من حيث أنه لم يكتفِ بطرح فكرة الزمان بل قدم حلاً له من حيث اعتباره الزمان امتداد، امتداد لما أعرف، وهذا الامتداد العقلي للماضي أو المستقبل إنما هو وعي بالزمان، من هنا يمكننا الحديث عن النظرة الأوغسطينية للزمان من حيث هي نظرة أخلاقية، تنطلق من جعل الحاضر البعد الاساسي والضروري للزمان، أي لديه القدرة على التوجه، وطريقا يمكن من خلالها الوصول إلى الأبدية .

2–في حديثه عن نظام الزمان في عالمنا بعد الخطيئة رأى بأن هذا النظام هو قانون الله الثابت، لأن الله وضع نظاما يقوم على التجانس والانسجام والجمال التي تربط المجموع بالأجزاء، فلا يمكننا تجاهله أو تجاوزه، فالأول مستحيل والثاني خطير، وهذه المشكلة هي التي شكلت اساس فكرته عن النظام والعالم .

3–اتخذ طريقة جديدة في التصوف تقوم على أساس عملي واقعي، فهو رغم مناجاته الكثيرة لله ورجائه له، إلا أنه ظل يمارس التدريس طيلة حياته، ولم يرفض الواقع، أي حاول أن يكون تصوفه تأييداً لفلسفته، وأن تكون فلسفته مرتبطة وملامسة لواقعه.

الاستنتاجات والتوصيات:

نستنتج مما سبق بأن الأوغسطينية فلسفة غنية بالأفكار والرؤى، وبما أن أوغسطين ينتمي إلى العصر الوسيط، ليس بوسعنا أن نتجاهل ما قدمته الفلسفة في ذلك العصر من إنتاج فكري وفلسفي كان له أثره الواضح في الفلسفة الحديثة والمعاصرة، لذلك ما يتوجب علينا هو الاهتمام بشكل أكبر بفلسفة ذلك العصر، وما تركته من أثرٍ على الفلسفة الحديثة ، خاصة وأننا نجد أنها قدّمت أفكار ومعالجات جديدة للكثير من المسائل منها على سبيل المثال فكرة المتناهي

---

[3]–أوغسطين . خواطر فيلسوف في الحياة الروحيةوص97.

2–المصدر نفسه،ص100.

والخلق من عدم والزمان والخطيئة والقلق وغير ذلك. وتالياً هدم الهوة التي نعيشها اليوم بين الفكر الوسيط والفكر الحديث عن طريق إعادة النظر بتلك الأفكار وقراءتها من جديد.

المصادر والمراجع:

1-الكتاب المقدس.

2-ابن منظور . لسان العرب، دار صادر ، بيروت،ج3، ط3، 2004.

3-جميل صليبا . المعجم الفلسفي ، دار الكتاب ، بيروت ، ج1، 1983.

4-أوغسطين . الاعترافات، ت:يوحنا الحلو ،دار المشرق، بيروت، ط3، 1988.

5-أوغسطين .خواطر فيلسوف في الحياة الروحية، ت: يوحنا الحلو،

6-أوغسطين . مدينة الله، ت: يوحنا الحلو، دار المشرق، بيروت، ط2، 2006.

7--جان بران: الفلسفة الرواقية ، تعريب جورج أبو كسم ،دمشق ، ط1، 1990.

8-علي زيعور : أوغسطينيوس مع مقدمات في العقيدة المسيحية و الفلسفة الوسيطة، دار إقرأ ، بيروت ،1983.

9-ماهر عبد القادر محمد ، عباس حربى عطيتو: دراسات في فلسفة العصور الوسطى ، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية ،1998.

10- -Samual Stumph E. Philosophy, History and problem, New York,Mcg raw Hill,Inc,1994.

11- -Masih,Y .Acriticai History of Western Philosophy(Creek,Medieval and Modren), India , 1993.